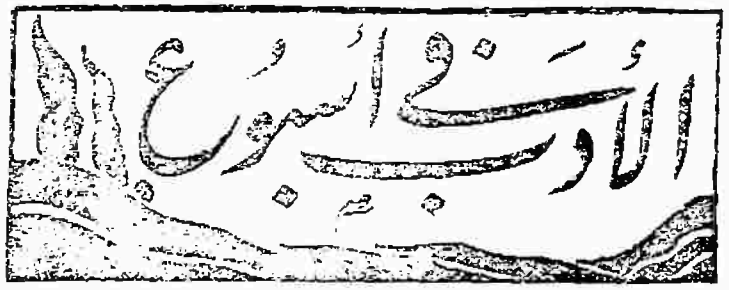

الربيع

أيّامُهُ كالعيدِ ، نَضْرَتُها ... تَرَفُ الصِّبا وعَضارَةُ الحبِّ
زُهرُ نَوَاعِمُ في نَضارَتِها ... سِحْرُ الحياةِ وفِتْنَةُ القلبِ
تَمْشي بأنفاسٍ مُعَطَّرَةٍ ... تَحْيي بِرِيَّاها الحُبَّ أوْ تَسْبي
تَنْسابُ في الصَّبَواتِ عابِثَةً ... عَبَثَ الدَّلالِ برِقَّةِ العَتْبِ
وتَدِبُّ في الأرْواحِ نَشْوَتُها ... هَفَّافَةً ، نَفَحاتُها تُصْبي
عِطْرُ الحبيبِ على نَسائِمِها ... يُذْكي غَرامَ الهائمِ الصَّبِّ
تَدْني إليهِ خَيالَ مُمْتَنِعٍ ... بالدَّلِّ ، مُبْتَعِدٍ على القُرْبِ
وتُريحُ أشْواقاً مُعَذَّبَةً ... ظَمْأى ، بلَذَّةِ مَنْهَلٍ عَذْبِ

* * *

هَذا رَبيعُ النَّاسِ ، واحَزَني ، ... ورَبيعِيَ الأشْواكُ في قَلْبي !
أغْضَى شَبابي في مُلاوَنَتِهِ ... كالشَّيْخِ تَحْتَ عَمائِمِ الشَّيْبِ
ودَلَفْتُ بالأيّامِ مُقْتَعِداً ... حُمُلَتُها خَطْباً على خَطْبِ
أمْشي بأفْكارٍ مُحَيِّرَةٍ ... بالشَّوْقِ آوِنَةً وبالرُّعْبِ
هَذا شَبابي ، سائرٌ أبَداً ... بَرَبيعِهِ في مُقْفِرِ جَدْبِ
أحْيا الشَّبابَ رَبيعُ حُبِّهِمُ ... ـ نَعِمُوا بِهِ ـ وأماتَني حُبّي !

« شاكر »

الرأى العام

كتب الأستاذ « الزيات » في العددين الماضيين من الرسالة كلمتين جليلتين ، إحداهما عن « التبشير » والأخرى عن « فقهاء بيزنطة » : أي فقهاؤنا وعلماؤنا . وهما تنزعان جميعاً إلى بيان أصل واحد ، وهذا الأصلُ هو غفلتُنا وإهمالنا ، ثم غثاثة آرائنا وضآلتُها ؛ وهذه مردّها إلى علل كثيرة قد توغّل داؤها في أعصاب الأمم الإسلامية ، حتى صار الدواء لها باطلاً أو كالباطل ، وذلك لغلبة الجهل علينا ، وفي الجهل العناد ، وفي العناد المكابرة ، وفي المكابرة اللجاجة ، واللجاجة أمّ ولودٌ كل أبنائها أباطيل ، ومَنْ طلب علاج الأباطيل وترك أمّهاتها تَلِد ، فقد جعل علاجه باطل الأباطيل

وهذه الأمة المصرية وسائر الأمم الإسلامية قد خضعت من قرون طويلة لسيطرة الجهل وبنيه ، وامتدت عليها حقبٌ طويلة أظلّتها بالغفلة والنسيان والموت ، وحجبت دونها شمس المعرفة ونور العلم ، حتى انحنت على أساطير التراب تجدُ فيها كل معاني الفكر والعقل والقوة ، وصار همُّها الأرضَ وما تنتج مما يكفي شهوات النفوس المستغلة باللذة ، أو يردُّ مسغبة النفوس المحطَّمة بالعمل . ثم جاءت الذئابُ الذكية العاقلة المدبّرة ، فعرفت صيدها وقالت له : اعمل عملك ، فهذا طريقُك ، ولكنها خشيتْ أن تتمزّق الظُّلَلَ وتسقطَ الحجُب ، وتهبَّ تلك القوة العلوية الرابضة في دم الإنسان ، فترى أشواقَها فتندفع إليها اندفاعَ الوحش المجوَّع في مَهْوى الريح التي تحملُ أنفاسَ فريسته ، وعندئذ تعجزُ الحيلة في دفع هذه القوة وردّها إلى ما كانت عليه تحت أطباق الخمول والخمود والغفلة . وعمِلَ ذكاء الذئاب عمله ، ورأى أن قمع القوة العلوية بالاستبداد والفجور في الاستبداد هو الشر عين الشر ، وأنه كقمع البخار في قماقم الحديد ومن تحتها جاحم من النار يتضرم ، فما يعقب إلا الانفجار والتصديع والأذى . فتنكبوا عن ذلك إلى تصريف هذه القوة العلوية حين تستيقظ في هذا الشرق تصريفاً يكفل لهم معها أمرين :

الأول التنفيس عن هذه القوة ، واتخذوا لذلك أبرع الأساليب ، فحاولوا أن يظهروا وكأنهم هم الذين يعملون على إزالة غشاوة الجهل عن العيون المحجبة ، فأنشأوا المدارس وتلبَّسوا بالنصيحة للتعليم في معاهده كلها ، وجعلوا خلال ذلك يضعون ويقررون أصولاً تؤدي بهم إلى أغراضهم ، ليسيروا بالتعليم إلى حالة ترضيهم وتنفعهم ، فلا يخرجون من هذه المعاهد جيلاً يقف أمامهم كما تقف القوة للقوة وكما يناهض العقل العقل ؛ ثم يزاحم في إنشاء الحضارة بالقوة العاملة والفكر المبدع

والأمر الثاني : وهو بناء على ذلك البناء ، وذلك اجتهادهم

— بكل أساليب التنبيه والدعاية والمثال وغير ذلك — فى توجيه الرأى العام فى نواح بعينها إلى العصبية الفردية والإجماعية ، ثم صرف هذا الرأى العام — أى أهله — عن الاهتمام بتقرير الأصول العامة التى تسير عليها السياسة الخلقية والعقلية والإنشائية والعملية ؛ وعن العمل فى توحيد الرأى العام للشعب توحيداً يكفل للأمة أن تستغل كل قواها فى تدبير المستقبل على نظام ثابت مستقر ماض على أسبابه إلى النهاية غير مختلف ولا متناثر

وقد كان من نتائج هذين الأمرين العظيمين — حين استيقظنا وأبصرنا — أن تعددت الثقافات فى الشعب الواحد ، وتنابذت العقول على المعنى الصحيح ، واختلفت المناهج المفضية إلى الغايات ، وعاون ذلك ما ورثناه من الجهل الداعى إلى العناد والمكابرة واللجاجة ؛ فاستشرى داء العصبية وأصبح العمل عندنا لا يكون عملاً حتى يحاول أن ينقض كل ما سبقه من العمل ، وتعاقبت على الأمة أطوار بعد أطوار ولا تزال فى عهد الإنشاء ، ولا تزال اللجان تجتمع عاماً بعد عام لتقرر وتضع ، وليس إلا للتقرير والوضع وحضانة الذكرات ! !

وكذلك اختل نظام الرأى العام ، وهو لا يكون إلا من اشتراك الجماعة فى الأصول الثقافية كلها ، واختل أيضاً مكوّن الرأى العام، وهو الصحافة وما ينزل فى ذلك منزلتها، فتكوّن من الصحف المختلفة المبادئ آراء متخالفة ، لا بل متباعدة ، لا بل متعادية ؛ كلا بل هى فى الواقع لا تمس جوهر حياة الشعب العامل المستهلك فى الزراعة والصناعة والجهل أيضاً ... وحتى لا تجد صحيفة واحدة قد بنت دعوتها على أصول بينة موافقة لحاجة هذا الشعب ، وعلى هذه الأصول تأخذ وتدع ، وتحمد وتنقد ، وتهدم وتبنى ، على تعاقب السنين وتغير الظروف والأحوال

التبشير

وأحدُ الأمورِ التى ابتُنِىَ بها العملُ على إضعافِ الشعب والتفريق بين أهله ، وإيجادُ ضروب من الثقافات فى بلد واحد يجب وجوباً قطعيا — كما يقولون — أن تتوحد ثقافته — هو ما اتخذوه من التبشير ومدارسه المختلفة ، وما يبطن أصحابها وما يظهرون . وليس التبشير هو الدعوة الصريحة إلى الدين المسيحى، فإن هذا لا يمكن أن يكون فى بلد جل أهله من المسلمين ، وخروج المسلم من دين الإسلام إلى دين غيره يكاد يكون مستحيلاً فى العامة من الشعب ، ويكاد لا يصح عند المتعلمين وأشباه المتعلمين. وهذه حقيقة يعرفها المبشرون قبل أن يعرفها المسلمون ، وإذن فليس الغرضُ من التبشير هو المفهوم من لفظه ، ولكنه الذى أشار إليه الأستاذ « الزيات » فى مقاله ، ثم إيجاد ضرب من الثقافة الأدبية والخلقية والعقلية يناقض ضروباً أخرى من الثقافات المختلفة فى مدارس الأجانب والمدارس الوطنية ، وبذلك تتعدد المناهج الفكرية فى حياة الشعب ، ويعسر بعد ذلك أن تتحد هذه الثقافات على رأى عام يقوم عليه الشعب ويحرص على تنفيذه ، ويأخذ فى الإعداد للوصول إليه درجة بعد درجة . وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو فى بدء لا ينتهى وفى اختلاف لا ينقضُّ ، بل يصير ولا بد إلى المعاداة والمنابذة والأحقاد التى تؤرثها السياسة الاجتماعية الخفية التى طغت على الشرق من قِبَل حضارة قوية باهرة عظيمة كالحضارة الأوربية

ولا يزال أهل الشرق مختلفين ما بقيت هذه الثقافات المتعددة من مدارس التبشير إلى المدارس الإلزامية ، تمد الرأى العام بأصحاب الآراء المختلفة والعقول المتباينة . ولن يصلح أمر هذا الشعب حتى يناهض ذلك كله بانصرافه إلى مدارسه ابتغاء توحيد ثقافته على أصل واحد . والأصل الضعيف الموحد فى ثقافة الشعب خير وأنفع من الأصول المتعددة القوية ، لأن هذه تغرى بالتفرقة والعداء ، وذلك يؤلف ويوفق ويضم أشتاتاً ويقيم القلوب على الإخلاص والتفاهم

فقهاء بيزنطة

وهذا مثل جيد ضربه الأستاذ الزيات لاختلاف عامة المسلمين على بعض أحكام الفقه الإسلامى والسنة النبوية ، وبنى بعضهم على بعض فى ذلك ، وتركهم الأصول الإسلامية التى ترفع المسلم إنسانية فوق إنسانية ، وتحصّنه من الجهل والضعف والفساد والذلة . وكيف يختلف علماء المسلمين على فروع من دينهم ويدعون الأصل لا ينفذ نوره إلى قلوب هذه الملايين من المسلمين ، فيطهر أدرانها ويزيل غشاوة العمى التى ضربت عليهم أسدادها .

وضرب الله مثلاً فقال : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين .

وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

فقد بين الله سبحانه أن اختلاف من سبقنا لم يكن إلا بغياً من بعد أن جاءهم العلم ، وأنه جعل المسلمين على شريعة من الأمر. وحق ذلك ألا يقع الاختلاف بين المسلمين إلا في رأي لا يفضي إلى فرقة ، وعلى ذلك كان السلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعوا قوله : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » ، وقد نهى عن الجدل والمراء وتناهى أصحابه عنه حتى قال ابن عمر : « لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو مُحِقٌّ »

ونحن قد صرنا الآن إلى زمن قد غلبت فيه بدع كثيرة ليست من الدين ولا تنزع إليه، ولكنها من محدثات الأمم وفتن الأهواء. ونحن أيضاً في زمان ضعف وقلة وتفرق ، والأمم من حولنا تتباغى على أنفسها وعلينا ، فما يكون اختلافنا على البدع والمحدثات وبغي بعضنا على بعض ، ومصير ذلك كله إلى العداوة والبغضاء وأن يكفر بعضنا بعضاً — إلا إعانة لهؤلاء على النيل منا ما شاءوا . ثم نحن في زمان جهل بالدين ، فليس من أمر الله أن ندع أصل الدين مجهولاً ، وننصرف إلى فروع نحاول على إبطالها أو تحقيقها

وقد روى البخاري : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه » ، فإذا كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسم أصل الخلاف بترك مجلس الخلاف في القرآن وهو أصل الإسلام كله ، فأولى أن نقوم عن مجلس الخلاف في فروع وسنن ، لئلا يفضي ذلك إلى مثل الذي نراه بيننا اليوم من التعادي على بعض السنن بالعداوة ، حتى صار لكل صاحب رأي فريق يحامي دونه ويعادي عليه ، ثم يقع بعضهم فيما هو أشد نكراً من أصل الخلاف ، ألا وهي الغيبة والتفريق بين المسلمين

سياسة الإسلام

والإسلام في بنائه قائم على مصلحة الجماعة ، وجعل المسلمين يداً على من سواهم ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وهذه مصلحة مقدمة على كل المصالح الأخرى ، وهي مقدمة على فروع الفقه الإسلامي ، كما قدم الجهاد في سبيل الله على كل عمل من أعمال الإسلام

والإسلام في أصله أيضاً لا يعرف من تسميهم اليوم « رجال الدين » فإنما هم من المسلمين يعملون أول ما يعملون في حياطة الجماعة وإقامة كيانها الاجتماعي والسياسي بالعمل ، كما يعمل فيه سائر الناس في وجوه المعيش وضروب البناء الاجتماعي . وليس الانقطاع للجدل في الفقه والسنن والتوحيد عملاً من أعمال الحياطة إلا أن يبنى على المسامحة والأخوة والرضا وترك اللجاج والمعاندة ، وإلا فهو شرٌّ كبيرٌ يجب على المسلمين أن يحسموا أصله

فإذا استقرَّ البناء الاجتماعيُّ الأمم الإسلامية على أصول الإيمان المُبصِر والتقوى الهادية ، وتبرأت النفوس والقلوبُ من غوائل الضعف والذلة والخضوع ، وقام على الأمم الإسلامية قرآنُها يهديها ، ويُهذِّبُ شعوبها ، ويرقّق أفئدتها لدين الله ، ويؤلف قلوبها على إعلاء كلمة التوحيد ، ويجمعها على دستور الإسلام في التشريع الواضح الحازم القوي ، ويجعل الاجتماع في كل بلد إسلامي اجتماعاً بريئاً من فتن الغواية ومحدثات الشر ، ثم تكون للمسلمين حضارة من أصل دينها تضارع الحضارات التي تناوئ شعوبها وتستذلها ، — إذا كان ذلك كله — فعندئذ يستطيع الحكم الإسلامي أن يرد ما يبقى من البدع التي غلبت على أهل الجهالة بالسلطان الحاكم لا بالكلام المفرق بين الناس وإذن فأجدرُ المعنيين برجال الإسلام من أصحاب الفقه والشريعة والتوحيد أن يعملوا على إنقاذ المجتمع الإسلامي من أسباب ضعفه بهدايته بأسباب القوة الأخلاقية والفكرية التي جعلت المسلمين في ثمانين عاماً سادة حاكمين على الإمبراطورية التي جاهد الرومان في بنائها ثمانمائة عام ... وإلا فلن يكون بعد مائة عام تحمل في حج ولا محراب في مسجد

محمود محمد شاكر

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد ، شارع الفلكي لباب اللوق
ومن المكتبات العربية الشهيرة